الأسماء المتعلقة بصفة البقاء

بعد أن ذكرنا أسماء اللَّهِ الحسنى المتعلّقة بصفة القدم، ننتقل للكلام عن الأسماء المتعلقة بصفة البقاء وهي ثلاثة (الآخر، والباقي، والوارث) وسنشرح هذه الأسماء واحداً واحداً.

78 ــ الآخر

معناه

الآخر هو الذي ليْسَ بَعْدَه شيء، ولا آخِرَ لوجوده، والباقي إلى ما لا نهاية. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: 3]. وقد ورد هٰذا الاسم في موضع واحد من القرآن الكريم فقط، هو هٰذا. وجاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدُعاء من «صحيحه»، باب ما يقول عند النوم، الحديث (2713) عن أبي هريرة ﷺ، قال: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ أمُرُنا إذا أخذنا مَضجَعَنا أَنْ نقولَ: **«اللهمَّ أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنتَ الآخِرُ فليس بَعْدَكَ شيء...»**.

أقوال العلماء

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في «المَقْصِد الأَسْنَى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى»: (الآخِرُ يكُونُ آخِراً بالإضافة إلى شيء، والأَوَّلُ والآخِرُ متناقضان، فلا يُتَصَوَّرُ أن يكون الشيءُ الواحِدُ مِنْ وَجْهٍ واحِدٍ، بالإضافة إلى شيءٍ واحد أولاً وآخِراً جميعاً، بل إذا نظرتَ إلى ترتيب الوجود، ولاحظتَ سلسلة الموجودات المُرَتَّبَة فاللَّهُ تعالى بالإضافة إليها أوَّلُ، إذْ المَوْجُودَات كلّها استفادَت الوُجُودَ منه، وأمّا هو فمَوْجُودٌ بذاته، لم يَسْتَفِدْ الوُجودَ مِن غيره.

ومهما نظرتَ إلى ترتيب السلوك، ولاحظتَ مراتِبَ منازِلِ السائِرِينَ إليه، فهو آخِرُ ما يَرْقَى إليه درجاتُ العارِفينَ، وكل مَعْرِفَةٍ تحصُل قبل معرفته، فهي مِرْقاةٌ إلى معرفته، والمَنْزِلُ الأقصى هو معرِفَةُ اللَّهِ تعالى، فهو آخِرٌ بالإضافةِ إلى السلوك، أوَّلٌ بالإضافة إلى الوجود، فمنه المَبْدأُ أولاً، وإليه المَرْجعُ والمَصِيرُ آخِراً). انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء اللَّهِ تعالى: الآخر، وهو الباقي بعد فناء خلقه كلّه ناطِقِهِ وصامِتِه.

أقوال المفسرين

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: 88].

أي لا تَليقُ العِبَادَةُ إلّا له، ولا تنبغي الإلٰهيّة إلّا لِعَظَمَتِهِ. وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيّومُ الذي تموتُ الخلائِقُ ولا يموتُ، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: 26، 27]، فَعَبَّرَ بالوجه عن الذات، وهكذا قوله هٰهنا: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، أي إلّا إيّاهُ. وقد ثبت في «الصحيح»، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أصدق كلمة قالها الشاعِرُ لبيد:**

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي إلّا ما أريد به وجهه.

وحكاه البخاري في «صحيحه» كالمقرر له. قال ابن جرير: ويُسْتشهد من ذلك بقول الشاعر:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذنباً لَسْتُ مُحْصِيهِ رَبَّ العِبادِ إليه الوَجْهُ والعَمَلُ

وهٰذا القولُ لا يُنافي القولَ الأول، فإنّ هٰذا إخْبارٌ عن كل الأعمال بأنّها

باطِلَةٌ إلّا ما أريدَ به وَجْهُ اللَّهِ تعالى مِنَ الأعمالِ الصالحة المطابِقَةِ للشريعة، والقَوْلُ الأولُ مُقْتَضاهُ أن كلَّ الذواتِ فَانِيَةٌ وزائِلَةٌ إلّا ذاتَه تعالى وتقدَّس، فإنه الأَوَّلُ الآخِرُ الذي هو قبلَ كلِّ شيءٍ وبَعْدَ كُلِّ شيءٍ.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدُنْيا في كتاب: «التفكُّر والاعتبار» بسنده إلى أبي الوليد قال: كان ابنُ عُمَر إذا أرادَ أن يتعاهَدَ قَلْبَهُ يأتي الخَرِبَةَ فَيَقِفُ على بابها فُينادِي بِصَوْتٍ حَزين فيقولُ: أينَ أهْلُكِ؟ ثم يَرْجعُ إلى نفسه فيقولُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي الملكُ والتصرُّفَ ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي يومَ مَعادِكُم فَيَجْزيكم بأعمالِكم إن كان خيراً فَخَيْرٌ، وإنْ شَرّاً فشَرٌّ.

وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: 26، 27]، فيخبر تعالى أن جميعَ أهْل الأرض سَيَذْهَبُونَ ويَمُوتُون أجمعون وكذلك أهْلُ السمٰوات، إلّا مَن شاءَ اللَّهُ ولا يبقَى أَحَدٌ سِوَى وَجْهِهِ الكريم، فإنّ الربّ تعالى وتقدَّس لا يموتُ، بل هو الحيُّ الذي لا يموتُ أبداً. قال قتادَة: (أنبأ ربُنا بما خَلَقَ، ثمّ أنبأ أنّ كُلَّ ذلكَ فانٍ). وفي الدعاء المأثور: (يا حيُّ يا قيّومُ يا بديع السمٰوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إلٰه إلّا أنت برحمتِكَ نستغيث أَصْلِحْ لنا شأننا كلَّه، ولا تَكِلْنَا إلى أنْفُسِنا طَرْفَةَ عَيْن ولا إلى أحَدٍ مِن خَلْقِكَ).

وقال الشَعْبِيُّ: إذا قرأتَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ فلا تسْكُتْ حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾، وقد نَعَتَ تعالى وجهه الكريمَ في هٰذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام، أي هو أهلٌ أن يُجَلَّ فلا يُعْصَى، وأن يُطاعَ فلا يخالَف.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن مَن علم أن اللَّهَ هو الآخر الباقي الذي ليس لآخره وجود، الخالد الأبدي لا يلحقه فناءٌ ولا عدم آمَن به، وتمسَّك بطاعته، وقطع صِلَتِهِ بما سواه من الموجودات الفانية الزائلة، كالمال والزوجة والأولاد، والعشيرة والأهل والتجارات، وعلق قلبه بالباقي الحي الذي لا يموت؛ لأنه وحده هو الحق، وما

سواه باطل، وقدم لمولاه العبادة والطاعة.

79 ــ الباقي

معناه

هو الدائِمُ الوُجودِ الذي لا يَقْبَلُ الفَنَاءَ ولا يَلْحَقُهُ العَدَمُ، فلا بدايَةَ لِوُجُودِهِ ولا نهاية له. قال اللَّهُ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: 26، 27]، ولم يَرِدْ هٰذا الاسم في القرآن الكريم بهٰذِهِ الصيغة، ولكنه وردَ بصيغة الفعل كما رأينا في الآية السابقة، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 73]، كما ورد في الحديث ا شريف الجامع لأسماء الله الحسنى الذي رواه أبو هريرة، وأخرجه الإمامان الترمذي، وابن ماجه في «سننهما»، والإمام البيهقي في كتابه «الدعوات».

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصدِ الأَسنَى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الباقي هو الواجبُ الوُجودِ في ذاته، ولكنه إذا أُضيفَ في الذهن إلى الاستقبال سُمِّيَ باقياً، وإذا أضيفَ إلى الماضي سُمِّيَ قديماً.

والباقي المُطْلَق هو الذي لا ينتهي تقديرُ وُجُودِهِ في الاستقبال إلى آخر، ويُعَبِّر عنه بأنه أَبَدِيٌّ، والقديمُ المُطْلَقُ هو الذي لا ينتهي تمادِي وُجودِهِ في الماضي إلى أوّل، ويُعَبَّر عنه بأنه أَزَلِيٌّ.

وقولنا: (واجب الوجود بذاته) مُتضمِّن لجميع ذلك. وإنما هٰذه الأسامي بِحَسَبِ إضافة هٰذا الوُجود في الذهن إلى الماضي أو المستقبل، وإنما يدخُلُ في الماضي والمستقبل المُتَغَيِّراتُ؛ لأنهما عبارتان عن الزمانِ، ولا يَدْخُلُ في الزمان إلّا التَغَيُّر، والحركة، إذْ الحَرَكَةُ بذاتها تنقسِمُ إلى ماضٍ ومُسْتَقْبَل، والمُتَغَيِّر يدخُلُ في الزمان بواسِطَةِ التغيُّر. فما جَلَّ عن التَغَيُّرِ والحركة، فَلَيْسَ في زمان، فَلَيْسَ فيه ماضٍ ومُسْتَقْبَل، فلا يَنْفَصِلُ فيه القِدَمُ عن التقابُل.

والماضي والمستقبل إنما يكون لنا إذا مضِي علينا وفينا أُمُورٌ، وسَيَتَجَدَّدُ أُمُورٌ، لا بُدَّ مِن أُمُورٍ تَحْدُثُ شيئاً بعد شيء، حتى تَنقَسِمَ إلى ماضٍ قد انْعَدَمَ وانقطع، وإلى زمانٍ حاضِرٍ، وإلى ما يُتَوقَّع تجدُّده مِن بعد، فحيثُ لَا تَجدُّد ولا انقضاء فلا زمان. وكيف لا؟ والحق تعالى قَبْلَ الزمان، وحيثُ خَلَقَ الزمان لم يتغيَّر مِن ذاته شيء، وقَبْلَ خَلْقِ الزمانِ لم يكن للزمان عليه جريانٌ، وبقي بعد خلق الزمان على ما عليه كان). انتهى كلام الإمام الغزالي.

ويقول الإمام المحدّث اللغوي مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى: الباقي، هو الذي لا ينتهي تقديرُ وُجودِهِ في الاستقبال إلى آخِرٍ ينتهي إليه، ويُعَبَّر عنه بأنه أَبَديُّ الوجود.

وفي حديث معاذٍ ﷺ الذي أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة مِن «سننه» باب وقت العِشاءِ الآخِرَة، الحديث (421): «بَقَيْنا رسولَ اللَّهِ ﷺ وقد تأَخَّرَ لِصَلاةِ العَتَمَة» يُقالُ: بَقَيْتُ الرَّجُلَ أَبْقِيهِ إذا انتظرتَه ورَقَبْتَه.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: 71 ـ 73].

يقول تعالى مُخْبِراً عن كُفْرِ فِرْعَونَ وعِباده وبَغْيه ومكابَرَتِهِ الحقَّ بالباطِلِ حين رأى من المعجزة الباهرة، والآية العظيمة من انقلاب العصَا التي ألقاها موسى حيَّة تسعى، ورأى الذين قد استنصر بهم من السَحَرَةِ قد آمنوا أوّل من آمن باللَّهِ تعالى رب العالمين بحضرة الناسِ كلهم، وغُلِبَ كلَّ الغَلَبِ، شَرَعَ في المُكابَرَةِ والبُهْتِ، وعَدَلَ إلى استعمال القوة وجاهه وسلطَانه في السَحَرَة، وهٰذا

دَأْبُ المُجْرِمين، أنهم إذا انْهَزَمُوا في الحِجَاجِ والمُناظَرَةِ المنطقية العقلية، وقامت ضدّهم الأَدِلّةُ والبَرَاهِين شاهِدَةً على بُطلان حُجَجِهم ومَذاهبهم، لَجَأُوا إلى استخدام القُوَّة ضِدَّ أخصامهم، وهكذا تَهدَّدَ فِرْعونُ السَحَرَةِ وتَوَعَّدَهم بالعذاب، وقال لهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي لموسى وصدّقتم به ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي وما أمرتكم بذلك، وقال قَوْلاً يعْلَمُ هو والسَحَرَةُ والخَلْقُ كُلُّهُمْ أنه بُهْتٌ وكَذِبٌ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، أي أنتم إنما أخذتم السِحْرَ عن موسى واتَّفَقْتُم أنتم وإيّاهُ عَلَيَّ، وعلى رَعِيَّتِي لِتُظْهِرُوهُ، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 123]، ثم أخذ يَتهَدَّدُهم فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، أي لأَجْعَلَنَّكُمْ مُثْلَةً ولأَقْتُلَنَّكُمْ وَلأُشْهِرَنَّكُم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي أنتم تقولون: أنّي وَقَوْمِي على ضَلالَة، وأنتم مع موسى وقومِه على الهُدَى فسوف تعلمون مَن يكونُ له العَذابُ ويَبْقَى فيه، فلما صالَ عليهم بذلك وتَوَعَّدَهم، هانَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهم في الله ﷻ: و﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي لن نختارَكَ على ما حَصَلَ لنا مِنَ الهُدَى واليَقينِ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ قَسَماً، ويُحْتَمَلُ أن يكون مَعْطُوفاً على البَيِّنات، يَعْنُون: لَن نختارَكَ على فاطِرِنا وخالِقِنا الذي أَنْشَأَنا مِن العَدَم، المُبتَدِيءِ خَلْقَنا مِن الطِين، فهُو المُسْتَحِقّ للعِبادَةِ والخضوع لا أنتَ ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي فافْعَل ما شِئْتَ وما وَصَلْت إليه يَدُكَ ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي إنّما لك تَسَلُّطٌ في هٰذه الدارِ، وهي دارُ الزوالِ، ونحنُ قد رَغِبْنا في دارِ القرار.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي ما كان مِنّا من الآثام خصوصاً ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ لتُعارِضَ به آيةَ اللَّهِ تعالى ومُعْجِزَةَ نَبيِّه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي خير لنا منك ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي أَدْوَمُ ثواباً مما كُنْتَ وعدتنا ومَنَّيْتَنا. وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي منكَ عذاباً إن عُصِيَ. والظاهِرُ أنَّ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهُ صَمَّمَ على ذلك وفعله بهم رحمةً مِنَ اللَّه، ولهٰذا قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: أصبحوا سَحَرةً وأَمْسَوْا شُهَدَاء.

80 ــ الوارث

معناه

وهو في بعض معانيه: الباقي بعد فَناءِ المَوْجُودَاتِ.

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم بصيغة الجمع ثلاث مرات.

(الأولى): قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر: 23].

(والثانية): قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89].

(والثالثة): قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: 58].

وورد بصيغة الفِعْل مَرّتين:

(الأولى): قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: 40].

(والثانية): قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: 77 ـ 80].

وورد بصيغة مالك الميراث في موضعين:

(الأول): قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: 180].

(والثاني): قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: 10].

كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللَّهِ الحسنى الذي رواه أبو

هريرة ﷺ، وأخرجه الإمامان الترمذي وابن ماجه في «سننهما»، والإمام البيهقيّ في «الدعوات».

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام الغزالي في كتابه «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (الوارِثُ هو الذي يَرْجِعُ إليه الأملاك بعد فناء المُلّاك. وذلك هو اللَّهُ سبحانه؛ إذْ هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مَرْجِع كلّ شيء ومصيرُه، وهو القائلُ إذْ ذاك: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: 16]، وهو المجيبُ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]، وهٰذا بحَسَب ظَن الأكثرين إذْ النِداءُ عبارَةٌ عن حقيقة ما ينكشِفُ لهم في ذلكَ الوقت.

فأما أربابُ البصائر، فإنهم أبداً مشاهِدُون لِمَعْنَى هٰذا النداء، سامِعُونَ له مِن غير صَوْتٍ ولا حَرْفٍ، يوقِنون بأن المُلْكَ لِلَّهِ الواحِدِ القَهّار في كلّ يوم، وفي كل سَاعَةٍ، وفي كل لحظة، ولذلك كان أزلاً وأبداً.

وهٰذا إنما يُدرِكُهُ مَن أدْرَكَ حقيقة التوجيه في الفعل، وعَلِمَ أن المُنْفَرِدَ بالفعل في المُلْكِ والملكوت واحِدٌ، وقد أشرنا إلى ذلك في أَوَّل كتاب التوكُّل مِن: «إحياء علوم الدين» فيُطلب منه).

ويقولُ الإمام مَجْد الدين أبو السعادات ابن الأثير الجَزَرِي الشافعي رحمه الله في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر»: (في أسماء اللَّهِ تعالى الوارِثُ هو الذي يَرِثُ الخلائِقَ، ويَبْقَى بعد فَنائِهم).

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي في كتاب الدعوات من «جامعه»، باب (67) الحديث (3480): «**اللهمَّ مَتِّعْني بِسَمْعِي وبَصَرِي، واجعَلْهُما الوارِثَ مِنّي**»، أي أَبْقِهما سَلِيمَيْن صَحِيحَيْن إلى أن أموتَ. وقيلَ: أراد بقاءَهما وقُوَّتَهما عند الكِبَر وانحِلالِ القُوَى النفسيّة فيكون السمعُ والبَصَرُ وارِثَيْ سائِرَ القُوَى، والباقِيَيْن بعدها. وقيل: أراد بالسَمْعِ وَعْيَ ما يسْمَعُ والعَمَلَ به، وبالبَصَرِ الاعتبارَ بما يَرَى. وفي روايةٍ: «واجعَله الوارِثَ مِنّي» على إفراد «واجعله» فردَّ الهاء إلى الإمْتاع، فلذلك وحَّدَهُ.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر: 33].

يُخبر تعالى أنه مالِكُ كُلِّ شَيءٍ وأنَّ كلَّ شَيءٍ سَهْلٌ عليه، يَسِيرٌ لديه، وأن عنده خزائِنَ الأشياءِ من جميع الصُنوف ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، كما يشاءُ وكما يُريدُ، ولِما لَهُ في ذلك مِن الحكمة البالِغَةِ والرحْمَة بعباده، لا على جِهَةِ الوُجُوبِ، بل هو ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 12]. أخرج ابن جرير الطبري، عن ابن مسعود ﷺ، قال: «ما مِن عامٍ بأَمْطَرَ مِن عامٍ، ولكنّ اللَّهَ يَقْسِمُه بينهم حيث شاء، عاماً هٰهُنا، وعاماً هٰهنا، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، أي تُلَقِّحُ السَحابَ، فَتَدُرُّ ماءً وتُلَقِّحُ الشَجَرَ، فَتَفْتَح عَنْ أَوْرَاقها وأكْمامها. وذكر ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بصيغَة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ فإنَّه أفردها، ووصفها بالعَقِيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلّا بين شَيْئَيْن فصاعِداً. أخرج الأعمش بسنده إلى ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، قال: «تُرْسَلُ الرياحُ فتحمل الماءَ من السَماءِ، ثم تَمُرُّ السَحاب حتى تَدُرَّ كما تَدُرُّ اللَّقْحَةُ»، وقال الضحَّاكُ: «يبعثها اللَّهُ على السَحابِ فتُلَقِّحُهُ فَيَمْتَلِئُ ماءً». وقال عبيد بن عُمَير الليثي عن أنواع الرياح: «يبعث اللَّهُ المُبَشِّرَة فَتَقُمُّ الأَرْضَ قَمّاً ـ أي تَكْنِسُها كَنْساً ـ ثم يبعثُ اللَّهُ المُثِيرَةَ فَتُثِيرُ السَحَابَ، ثم يَبعثُ اللَّهُ المُؤلِّفَةَ فَتُؤَلِّف السَحاب، ثم يبعثُ اللَّهُ اللواقِحَ فتُلَقِّحُ الشَجَرَ، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾. وأخرج ابن جرير الطبري بسنده إلى أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«الريحُ الجنوبُ مِن الجنَّةِ، وهي التي ذكر اللَّهُ في كتابه، وفيها منافِعُ للناسِ»**.

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾، أي أنزلناهُ لكم عَذْباً يُمكنكم أن تشربوا منه ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: 70].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ قال سفيانُ الثَّوْرِيّ: أي بمانِعِينَ. ويُحتمل أن المرادَ: وما أنتم له بحَافِظين في الأحْواض، بل نحن ننزّله ونحفظه عليكم، ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء اللَّهُ تعالى لأغارَه في الأرض وذهب به، ولكن مِن رحمتِه أنزله وجعله عَذْباً وحفظه في العُيون والآبارِ والأنهارِ وغيرِ ذلك، ليبقى لهم في طُولِ السَنَةِ يَشْربُونَ ويَسْقُون أنعامهم وزُرُوعَهم وثمارَهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ إخبارٌ عن قُدرته تعالى على بَدءِ الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحْيا الخَلقَ مِنَ العَدَم ثمّ يُميتُهم، ثم يَبْعثُهم كلُّهم ليوم الجَمْعِ ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أخبر تعالى أنه يَرِثُ الأرضَ ومَن عليها، وإليه يُرْجَعُون.